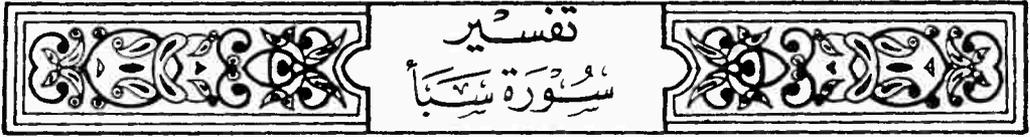


تعالى: ﴿وَحَلَمَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليفة، وعفة طعمة».

﴿لِعَذَابِ اللَّهِ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧٣)

﴿لِعَذَابِ اللَّهِ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ﴾ أي إنما حمل بني آدم الأمانة، وهي التكليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله، ويطنون الكفر متابعة لأهله ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة رسله ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي ويرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (١)

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أنه له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة، لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٧٧) [القصص: 70] ولهذا قال الله تعالى ههنا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي الجميع ملكه وعبيده، وتحت تصرفه، وقهره كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ [البلبل: 13] ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ فهو المعبود أبداً، المحمود على طول المدى ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ﴿الْخَبِيرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه شيء.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ (٢)

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض، والحب المبدور والكامن فيها، ويعلم ما يخرج من ذلك: عدده وكميافته وصفاته ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي من قطر

ورزق، وما يعرج فيها، أي من الأعمال الصالحة وغير ذلك ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ أي الرحيم بعباده، فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة، الغفور عن ذنوب التائبين إليه، المتوكلين عليه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلِيمٌ الْغَيْبِ لَا يَعْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، فأحداهن في سورة يونس ﷻ ﴿٥٧﴾ [يونس: 53] والثانية هذه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ والثالثة في سورة التغابن، وهو قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ نُعْزِبَهُمْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن: 7] وقوله: ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ لَا يَعْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ لا يعزب عنه: لا يغيب عنه، أي الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

ثم بين حكمته في إعادة الأبدان، وقيام الساعة بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْحِ أَلِيمٍ ﴿٥﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ أي سعوا في الصد عن سبيل الله تعالى، وتكذيب رسله ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْحِ أَلِيمٍ﴾ أي لينعم السعداء من المؤمنين، ويعذب الأشقياء من الكافرين. كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الحشر: 59] وقال تعالى: ﴿أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: 28].

﴿وَبَرَىٰ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ

الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾

﴿وَبَرَىٰ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة، ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله تعالى في الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين، ويقولون يومئذ أيضاً ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ مِنَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: 43] وقوله: ﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ العزيز هو المنيع الجنب الذي لا يغالب، ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء وغلبه، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وهو المحمود في ذلك كله وجل وعلا.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُمُ عَلَى رَجُلٍ يَبْتَئْتُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلَّ مُمْزِقٍ إِنَّكُمْ لَبِئَ خَلْقٍ

جَدِيدٍ ﴿٧﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة واستهزاءهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُمُ عَلَى رَجُلٍ يَبْتَئْتُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلَّ مُمْزِقٍ ﴾ أي تفرقت أجسادكم في الأرض، وذهبت فيها كل مذهب، وتمزقت كل ممزق ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أي بعد هذا الحال ﴿ لَبِئَ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي تعودون أحياء، ترزقون بعد ذلك. وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين: إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله تعالى أنه قد أوحى إليك ذلك، أو أنه لم يتعمد، لكن لبس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون، ولهذا قال:

﴿ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾

﴿ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ قال الله عز وجل رداً عليهم ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا، ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ﴿ فِي الْعَذَابِ ﴾ أي الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله تعالى: ﴿ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ من الحق في الدنيا.

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَسْأَ نَحِيفَ بِهِمُ الْآرْضَ أَوْ

نُصِيطَ عَلَيْهِمْ كَيْفًا مِنْ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾

ثم قال تعالى منبهاً لهم على قدرته في خلق السماوات والأرض، فقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي حيثما توجهوا وذهبوا، فالسمااء مطلة عليهم، والأرض تحتهم ﴿ إِنَّ نَسْأَ نَحِيفَ بِهِمُ الْآرْضَ أَوْ نُصِيطَ عَلَيْهِمْ كَيْفًا مِنْ السَّمَاءِ ﴾ أي لو شئنا لفعلنا بهم ذلك بظلمهم وقدرتنا عليهم، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا. ثم قال ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ تائب، أو المقبل إلى الله تعالى، أي إن في النظر إلى خلق السماوات والأرض لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجاء إلى الله على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد، ووقوع المعاد لأن من قدر على خلق هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها، وأطوالها وأعراضها، أنه القادر على إعادة الأجسام، ونشر الرميم من العظام.

﴿ وَقَدْ ءَايَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٍ أُوِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام ما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العدد والعدد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم الذي كان إذا سبغ به تسبغ معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات،

والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل فوقف واستمع لقراءته ثم قال: «لقد أوتي هذا زمماراً من زممير آل داود» وقال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا وتر أحسن من صوت أبي موسى الأشعري. ﴿أَوْبَى﴾ سحبي ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط.

﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّغَتٍ وَقَدِّرَ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١)

ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّغَتٍ﴾ وهي الدروع، وهو أول من عملها من الخلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح ﴿وَقَدِّرَ فِي السَّرْدِ﴾ هذا إرشاد لنبية داود ﷺ في تعليمه صنعة الدروع، قال مجاهد في قوله: ﴿وَقَدِّرَ فِي السَّرْدِ﴾ لا تدق المسمار فيعلق في الحلقة، ولا تغلظه، فيقصمها، واجعله بقدر ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أي في الذي أعطاكم الله من النعم ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي مراقب لكم، بصير بأعمالكم، وأقوالكم، لا يخفى علي من ذلك شيء.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمَنْ أَلْجِنَّ مِّنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٢)

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود وعطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من تسخير الريح له تحمل بساطه له غدوها شهر ورواحها شهر ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ النحاس ﴿وَمَنْ أَلْجِنَّ مِّنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن ربه أي بقدره وتسخيره لهم بمشيئته على ما يشاء من البنائيات وغير ذلك ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي من يعدل منهم ويخرج عن الطاعة ﴿نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ وهو الحريق.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٣)

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ﴾ أما المحارِب في البناء الحسن، وهو أشرف شيء في المسكن وصدرة، وقال الضحاك: هي المساجد. أما التمثيل فهي الصور، وكانت من نحاس، أو من طين، وزجاج ﴿وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ﴾ الجواب جمع جابية، وهي الحوض الذي يجيء فيه الماء. والقُدور الراسيات، أي الثوابت في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمتها ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ أي وقلنا لهم اعملوا شكراً على ما أنعم به عليكم في الدين والدنيا. قال أبو عبد الرحمن السلمي: الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير تعمله لله عز وجل شكر، وأفضل الشكر الحمد. وقد كان آل داود عليهم السلام قائلين بشكر الله قولاً وعملاً. عن ثابت البناني قال:

كان داود عليه أفضل السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي، فغمرتهم هذه الآية ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ﴾ وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال: «إن أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى» وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قالت أم سليمان بن داود عليهم السلام لسليمان، يا بني لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة». قال فضيل في قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ قال داود: يا رب، كيف أشكرك والشكر نعمة منك؟ قال: «الآن شكرتني علمت أن النعمة مني» وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ إخبار عن الواقع.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام، وكيف عمى الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكأ على عصاه، وهي منسأته مدة طويلة نحواً من سنة، فلما أكلتها دابة الأرض، وهي الأرضة ضعفت وسقطت إلى الأرض وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة، وتبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون، ويوهمون الناس ذلك.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم، وبلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام من جملتهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشتهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ شذر مذر. ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾ ثم فسرها بقوله عز وجل: ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ أي غفور لكم إن استمررتهم على التوحيد.

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَجَرٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكٰفِرُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أي عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس من

دون الله، كما قال الهدهد لسليمان عليه الصلاة والسلام ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَيْبٍ بَيْنَ يَمِينٍ﴾ (١٧) إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ﴿١٨﴾ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴿١٩﴾ [النمل: 22، 24] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ﴾ المراد بالعرم المياه، وقيل: الوادي ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ هو الأراك ﴿وَأَقْلٍ﴾ هو الطرفاء، أو هو شجر يشبه الطرفاء، وقيل: هو السمرة. وقوله: ﴿وَشَقَى مَنِ سَدِرَ قَلِيلٍ﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر قال ﴿وَشَقَى مَنِ سَدِرَ قَلِيلٍ﴾ فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة، والظلال العميقة، والأنهار الجارية تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل، وذلك بسبب كفرهم، وشركهم بالله، وتكذيبهم الحق، وعدولهم عنه إلى الباطل، ولهذا قال ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ﴾ (٢٠) أي عاقبناهم بكفرهم.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (٢١)

يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهني الرغيد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثماراً، ويقبل في قرية ويبست في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ قيل: هي قرى صنعاء، أو هي قرى الشام، أي أنهم كانوا يسرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة ﴿قُرَى ظَاهِرَةً﴾ أي بينة واضحة يعرفها المسافرون، يقلون في واحدة ويبستون في أخرى ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ﴿سَيْرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أي الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهاراً.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٢٢)

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وذلك أنهم بطروا النعمة، وأحبوا مفاوز وهمامة يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل، والسير في الحرور والمخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج لهم مما تبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها ويصلها مع أنهم كانوا في عيش رغيد في من وسلوى، وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة. ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي جعلناهم حديثاً للناس، وسمراً يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد ههنا وههنا، ولهذا تقول

العرب في القوم إذا تفرقوا: تفرقوا أيدي سبا، وأيدي سبا، وتفرقوا شذر مذر. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النعمة والعذاب وتبديل النعمة، وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبه من الكفر والآثام لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب، شكور على النعم.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٥﴾

لما ذكر تعالى قصة سبا وما كان من أمرهم في اتباع الهوى والشيطان أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى وخالف الرشد والهدى فقال ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ قال ابن عباس هذه الآية كقوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 62] وكقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ ﴿١٧﴾ [الأعراف: 17].

﴿وَمَا كَانَ لِمَنْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَاكٍ وَرَبُّكَ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ ﴿١١﴾

﴿وَمَا كَانَ لِمَنْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي من حجة. قال الحسن البصري: والله ما ضربهم بعضا، ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غرورا وأماني دعاهم إليها فأجابوه ﴿إِلَّا لِيَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَاكٍ﴾ أي إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء فيحسن عبادة الله عز وجل في الدنيا ممن هو منها في شك ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي ومع حفظه ضل من ضل من اتباع إبليس، وبحفظه وكلاءته سلم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل.

﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ

وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَمْ يَنْهَمُ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ ﴿١٢﴾

﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الآلهة التي عبدتموها من دونه ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ﴾ أي لا يملكون شيئا استقلالاً، ولا على سبيل الشركة ﴿وَمَا لَمْ يَنْهَمُ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه، عبيد لديه.

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا

الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ﴿١٣﴾

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أي لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترى أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾ وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السماوات

كلامه أَرَعِدُوا مِنَ الْهَيْبَةِ حَتَّى يَلْحَقَهُمْ مِثْلُ الْغَشْيِ وَقِيلَ ﴿حَقَّ إِنَّا فُرِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أَي زَالَ الْفَرْعُ عَنْهَا، أَوْ خَلَى عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ أَي أَخْبَرُوا بِمَا قَالَ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ .

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى مقررًا تفرد به بالخلق والرزق وانفراده بالإلهية أيضاً، فكما كانوا يعترفون بأنهم لا يرزقهم من السماء والأرض أي بما ينزل من المطر، وينبت من الزرع إلا الله فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ هذا من باب اللف والنشر، أي واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم، ونحن على الهدى، أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد، فدل على ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى.

﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ معناه التبري منهم، أي لستم منا، ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده، وإفراد العبادة له، فإن أجبتهم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتهم فنحن براء منكم، وأنتم براء منا.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿١٦﴾﴾

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ أي يوم القيامة يجمع بين الخلائق في صعيد واحد ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي يحكم بيننا بالعدل، فيجزئ كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة، والسعادة الأبدية ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ أي الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور.

﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧﴾﴾

﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ أي أروني هذه الآلهة التي جعلتموها أنداداً، وصيرتموها له عدلاً ﴿كَلَّا﴾ أي ليس له نظير ولا شريك ولا عديل، ولهذا قال ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ أي الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي ذو العزة الذي قد قهر بها كل شيء، وغلبت كل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، تبارك وتعالى وتقدس عما يقولون علواً كبيراً.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ تسليماً ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي إلا إلى جميع الخلائق من المكلفين ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي تبشر من أطاعك بالجنة، وتندر من عصاك بالنار ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: 103].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٩)

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٩) وهذا إخبار من الله عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا لَأْتِي آلَ إِنَّا الَّذِينَ يَمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لِيُضَلِّ بِعِيدِ﴾ [الشورى: 18].

﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْتِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٠)

﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْتِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٠) أي لكم ميعاد مؤجل معدود محرر، لا يزداد ولا ينقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [الإسراء: 4] وقال عز وجل: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّوٍرٍ﴾ [مرد: 104].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣١)

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم، وبما أخبر به من أمر المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال الله تعالى متهدداً لهم ومتوعداً ومخبراً عن مواقفهم الدليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ منهم، وهم قادتهم وسادتهم ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي لولا أنتم تصدوننا لكننا اتبعنا الرسل، وآمنا بما جاؤونا به.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ تَجْرِمِينَ﴾ (٣٢)

فقال لهم القادة والسادة، وهم الذي استكبروا ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ أي أنحن فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل، لشهوتكم واختياركم لذلك، ولهذا قالوا ﴿بَلْ كُنتُمْ تَجْرِمِينَ﴾.

﴿رَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿رَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً وتغترون وتمنوننا وتخبرونا أنا على هدى، وأنا على شيء، فإذا جمع ذلك باطل وكذب مبین ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ أي نظراء وآلهة معه، وتقيموا لنا شياً وأشياء من المحال تضلونا بها ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي الجميع من السادة والأتباع كل ندم على ما سلف منه ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي إنما نجزيكم بأعمالكم، كل بحسبه، للقيادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 38].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ، وأمرأ له بالتأسي بمن قبله من الرسل، ومخبره بأنه ما بعث نبياً في قرية إلا كذبه مترفوها، واتبعه ضعفاؤهم، كما قال نوح عليه الصلاة والسلام ﴿قَالُوا أَنْوْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: 111] وقال جل وعلا ههنا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ﴾ أي نبي أو رسول ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة. قال قتادة: هم جبايرتهم وقادتهم وروؤسهم في الشر ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي لا نؤمن به ولا نتبعه.

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ أي افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم، واعتنائهم بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا، ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك، قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُؤْتُهُمْ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ سَائِرٌ لَّمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: 55، 56] وقال تعالى: ﴿فَلَا تُمَجِّجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَهَقَ أَنفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: 55].

ولهذا قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب، فيفقر من يشاء، ويغني من يشاء، وله الحكمة التامة البالغة، والحجة القاطعة الدامغة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ﴾ أي ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم، ولا اعتنائنا بكم. روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» ورواه مسلم وابن ماجه. ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي تضاعف لهم الحسنه بعشرة أمثالها إلى سبعمائه ضعف ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ أي في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى، ومن كل شر يحذر منه. روى ابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة لغرفاً ترى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها، فقال أعرابي: لمن هي؟ قال: «لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام».

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ ءُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ أي يسعون في الصد عن سبيل الله، واتباع رسله، والتصديق بآياته ﴿ءُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم.

﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي بحسب ما له في ذلك من الحكمة، يبسط على هذا من المال كثيراً، ويضيق على هذا، ويقتصر على هذا رزقه جداً، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَللْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء: 21] أي كما هم متفاوتون في الدنيا، هذا فقير مدقع، وهذا غني موسع عليه فكذلك هم في الآخرة، هذا في الغرفات في أعلى الدرجات، وهذا في الغمرات في أسفل الدرجات. وأطيب الناس في الدنيا كما قال ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورزق كافاً، وقنعه الله بما آتاه» رواه مسلم ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به، وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب، كما ثبت في الحديث «يقول الله تعالى: أنفق أنفق عليك». وفي الحديث أن ملكين يصبحان كل يوم يقول أحدهما: اللهم اعط ممسكاً تلقاً، ويقول الآخر: اللهم اعط متفقاً خلفاً. وقال رسول الله ﷺ: «أنفق بلائاً، ولا تحش من ذي العرش إقللاً».

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق فيسأل الملائكة الذين كان المشركون

يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صدرهم ليقربوهم إلى الله زلفى فيقول الملائكة ﴿أَهْتَلَاءَ
إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ أي أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤١﴾

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أي تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي نحن عبيدك
ونبرأ إليك من هؤلاء ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ يعنون الشياطين، لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة
الأوثان وأضلوهم ﴿أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا
تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٤٢﴾

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من
الأنداد والأوثان التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم، فالיום لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً
﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المشركون ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي يقال لهم ذلك
تقريباً وتوبيخاً.

﴿وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا يَنْتَدِرُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ ءَابَاؤَكُمْ وَقَالُوا
مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٤٣﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة، والأليم من العذاب، لأنهم كانوا إذا نلتى عليهم
آياته ينات ويسمعونها غضة طرية من لسان رسول الله ﷺ ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا
كَانُوا يَعْبُدُ ءَابَاؤَكُمْ﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق، وأن ما جاءهم به الرسول، باطل. عليهم وعلى
آبائهم لعائن الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَىٰ﴾ يعنون القرآن ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا
جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

﴿وَمَا ءَايَاتُهُمْ مِنْ كِتَابٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ ﴿٤٤﴾

﴿وَمَا ءَايَاتُهُمْ مِنْ كِتَابٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ ﴿٤٤﴾ أي ما أنزل الله على العرب من
كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ، وقد كانوا يودون ذلك، ويقولون: لو جاءنا
نذير، أو أنزل علينا كتاب لكان أهدى من غيرنا، فلما من الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه.

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا ءَايَاتُهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي من الأمم ﴿وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا ءَايَاتُهُمْ﴾ أي من القوة في الدنيا كما قال
تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا

أَبْصَرْتُمْ وَلَا آفَئِدْتُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْرِبُونَ ﴿١٦﴾
[الأحاف: 26] ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا رَسُولًا فَكَيفَ كَانَ نَكِيرًا﴾ أي فكيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلي؟

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَجْهِ اللَّهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثِّيَ وَفُرْدَيْتُمْ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿١٧﴾﴾

يقول تبارك وتعالى: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون ﴿إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَجْهِ اللَّهِ﴾ أي إنما أمركم بواحدة، وهي ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثِّيَ وَفُرْدَيْتُمْ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي أن تقوموا قياماً خالصاً لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية، فيسأل بعضكم بعضاً: هل بمحمد من جنون، فينصح بعضكم بعضاً ﴿تَتَفَكَّرُوا﴾ أي ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه، ويتفكر في ذلك. وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ في البخاري أن النبي ﷺ صعد الصفا ذات يوم فقال: «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم، أما كنتم تصدقوني» قالوا: بلى، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تبأ لك، ألهذا جمعنا؟ فأنزل الله ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . . .﴾ [سورة السد].

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول للمشركين ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي لا أريد منكم جعلاً ولا عطاء على أداء رسالة الله عز وجل إليكم، ونصحي إياكم، وأمركم بعبادة الله ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي لما لم يجمع الأمور بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم وما أنتم عليه.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْفِئُ بِالْحَقِّ يَخْلُقُ عَلَمَ الْغُيُوبِ ﴿١٨﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْفِئُ بِالْحَقِّ يَخْلُقُ عَلَمَ الْغُيُوبِ ﴿١٨﴾﴾ كقوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غانف: 15] أي يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض، وهو علام الغيوب، فلا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيهِ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُهُ ﴿١٩﴾﴾

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيهِ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُهُ ﴿١٩﴾﴾ أي جاء الحق من الله والشرع العظيم، وذهب الباطل وزهق واضمحل، كقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: 18] ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة جعل

يطعن الصنم منها بسبة قوسه ويقرأ ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الاسراء: 81] ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ﴾ [٤٩] رواه البخاري ومسلم.

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُمْ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُمْ فِيمَا يُؤْتِي إِلَىٰ رَبِّيَ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [٥٠] ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُمْ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُمْ فِيمَا يُؤْتِي إِلَىٰ رَبِّيَ﴾ أي الخير كله من عند الله، وفيما أنزل الله عز وجل من الوحي والحق المبين، فيه الهدى والبيان والرشاد، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي سميع لأقوال عباده قريب، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه. وفي الصحيحين «إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً مجيباً».

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [٥١]

يقول تعالى: ولو ترى يا محمد إذ فرغ هؤلاء المكذبون يوم القيامة فلا قوت، أي فلا مفر لهم ولا وزير لهم ولا ملجأ ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي لم يمكنوا أن يمعنوا في الهرب، بل أخذوا من أول وهلة.

﴿وَقَالُوا ءَأَمَّا بِهِءُ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [٥٢]

﴿وَقَالُوا ءَأَمَّا بِهِءُ﴾ أي يوم القيامة يقولون: آما بالله وملائكته وكتبه ورسله كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [الجمعة: 12] ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي وكيف لهم تعاطي الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم، وصاروا إلى الدار الآخرة، وهي دار الجزاء، لا دار الابتلاء، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان. كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد.

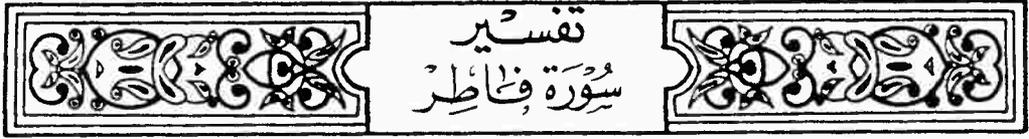
﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِءُ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [٥٣]

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِءُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة، وقد كفروا بالحق في الدنيا، وكذبوا الرسل ﴿وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ بالظن، كما قال تعالى: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف: 22] فتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: كاهن، وتارة يقولون: ساحر، وتارة يقولون: مجنون إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالبعث والنشور والمعاد.

﴿وَرَجِلَ بَيْنَهُمْ وَيَبْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فَعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي سَكِّ مَرِيبٍ﴾ [٥٤]

﴿وَرَجِلَ بَيْنَهُمْ وَيَبْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل ﴿كَمَا فَعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسل، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [٨٤] فلتر يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا

بَأْسًا سَنَّ اللَّهُ الَّتِي قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ [غانر: 84، 85] ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيبٍ﴾ أي كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّىٰ وَتَلْتَّ وَرَبِّعَ زَيْدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾

عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعريبان يختصمان في بشر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها، أي بداتها ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بديع السماوات والأرض، وقال الضحاك: كل شيء في القرآن ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو خالق السماوات والأرض. وقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا﴾ أي بينه وبين أنبيائه ﴿أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ﴾ أي يطرون بها ليلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿مَّتَنَّىٰ وَتَلْتَّ وَرَبِّعَ﴾ أي منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الإسراء وله ستمائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب، ولهذا قال جل وعلا ﴿زَيْدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء، وقيل: يزيد في حسن الصوت، وقرئ في الشاذ «يزيد في الحلق» بالحاء المهملة.

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

يخبر تعالى أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وقد روى الإمام أحمد أن المغيرة بن شعبة سمع رسول الله ﷺ يقول إذا انصرف من الصلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد». وسمعته ينهي عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، وعن وأد البنات، وعقوق الأمهات، ومنع وهات. وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾.

﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ خَيْرٌ اللَّهُ بَرَزَقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُوَفَّكُونَ ﴿٣﴾﴾